تأثير الاب شيخو

في

تاريخ الآداب العربيّة

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربيّة في كليّة القديس يوسف

كان تاريخ الآداب ولا يزال اثبت أسّ التنشئة العقلية ، واقوم سبيل للبارع الى الثقافة العامّة . فخصّته الجامعات العالية في بلاد الغرب بالدروس المطوّلة ، وعوّلت عليه وزارات المعارف في تهذيب الناشئة ، تعويلها على الركن الامتن والطريقة المثلى . فثبت الركن ، وجادت الطريقة ، واذا بالنتائج الحسنة تفوق الآمال ، واذا بالآداب العربية ترتفع شيئاً فشيئاً الى مستواها الحاضر الراقي.

على ان شرقنا العزيز لم يستفد من هذه النهضة ، حالَ يقظته في القرن الماضي ؛ لانصراف ادبائه ، اذ ذاك ، الى تحدّي الانحطاطيين في علومهم الدقيقة والسطحية معاً . فكانوا يفضّلون درس شواذات النحو ، وترتيب اساليب البديع ، والخوض في بحور العروض المختلفة ، على نقد آثار القدماء من الكتّاب وتفهم اساليبهم ، والتمييز بين شخصياتهم الادبية ؛ او البحث في الحوادث التي اثّرت فيهم ، فدفعتهم الى الكتابة والتأليف . فساروا ، في التعليم ، على تلك الطريقة السطحية في تعزيز الذاكرة دون العقل ، والاجتهاد في حفظ الامثال الفرديّة دون الانتباه الى المبادئ العامّة . فكم نبغ فينا من الذين سوّدوا المجلّدات على طريقة الصاحب وبديع الزمان ، فاستعملوا الكثير من الالفاظ في مختلف معانيها ، وبرهنوا عن معرفة واسعة في جميع القواعد ، دون ان يتصوّروا ، ولو عن طريق العرض ، ان للذوق دوراً في الانشاء . وكم صفّق آباؤنا لنظّام خاضوا جميع الابحر الشعرية بين تامّ ، ومجزوء ، ومشطور ، ومنهوك ،

فصدّروا الاساليب الخارجية ، ونوّعوا القوافي ، دون ان ينقهوا ماهيـة الشعر وشروطه المعنويّة . وهكذا كانت الطريقة في سائر فنون التعليم العربي كاللغة ، والفقه ، والتاريخ مما لا يدخل في بحثنا اليوم.

فنرى يوضح حالة الادب في بلادنا ، اذ انهى المرحوم الاب شيخو دروسه العالية ، واطّلع على آداب الغربيين ، وطريقة التعليم عندهم ، فاراد ان يفيد بلاده ولغته بقدر ما استفاد . فبدأ بالعمل ، وبالعمل الشاقّ.

ولكي نفهم الصعوبات المتعدّدة التي صادفهـا ، وندرك شيئـاً من جهوده واتعابـه المتواصلة في ذاك السبيل ، علينا ان نتراجع نحو نصف قرن ، فنضع ذواتنا في عـالم المطبوعات سنة ١٨٨٢ ، وهي السنة التي ظهر فيهـا « مجاني الادب » لاوّل مرّة . اذ ذاك تتحقق ، ببعض التعجب والدهشة ، انهُ لم يكن من وجود للكتب الادبية ، بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، اللهمّ بعض كتب قديمة كالاغاني الكبير المطبوع في بولاق ، وشرح المعلقـات للزوزني المطبوع في دير القمر ، وبعض الدواوين الشعرية المطبوعة في بيروت ، وبولاق ، واوروبا . وهي فضلاً عن قلّتها ، لم تكن مما يعوّل عليهِ في التدريس الادبي العالي ، لاقتصارها على النصّ وبعض الشرح اللفظي ؛ دون الـدروس المتنوعة ، والتاريخيّـة ، والادبية الحقة ؛ ولـتم ظاهرها من حيث الطبع والترتيب ، مع مـا بقي في صفحاتها من العبـارات السمجة ، والالفاظ البذيئة ، التي لا يحسن اطـلاع المتعلّمين عليها.

امام هذا الفقر الادبي ، وقف الاب شيخو راغباً ، متهيّباً ، حائرًا : راغباً في العمل والافادة ، متهيّباً الاقدام في مثل هذه الصعوبات ، حائرًا في اي ثغرة يسدّ ، وباي نوع من الدرس يبدأ . ولكنهُ لم يلبث ان نفذ بصره الثـاقب الى ما وراء غياهب الحاضر ؛ فشاهد مستقبل الدروس مبنيًا على تاريخ الآداب الصحيح ؛ وكأنهُ ادرك ما سيسمح لهُ الله بهِ من الاعمال ، فنهض الى الشغل ، وقد وضحت واجباته في ذهنه ، وتفرّعت الى اربعة اقسام :

١ً ــ نشر النصوص القديمة ، والتراجم المختصرة لمؤلفيها ، مع جداول كتبهم

٢ً ــ التوسّع في الدروس الادبية ، وتناوُل حياة المؤلفين وآثارهم بالتحليل والنقد

٣ً ــ زيادة التوسّع في الدروس الادبية بتناول عصور الآداب بحثاً وانتقاداً

٤ً ــ الانفراد بدرس نقاط خاصة من تاريخ الادب ، فتمحيصها علمياً ؛ وجعلها تمهيداً لازماً لكتابة التاريخ الادبي الصحيح.

وهكذا كانت اعماله الاولى تهيئة المواد : فنشر « مجاني الادب » ، تلك المجموعة النفيسة التي انتخبها من الكتب والمخطوطات العديدة في الشرق والغرب ، وبوّبها على ستة مجلدات متدرّجة ، وزيّنها ، واوضحها بالشكل الكامل اولاً ، ثم بكتابة الشروح الواسعة عليها ، من لغوية ، وادبيّة ، وتاريخية ، وجغرافية ، وعلمية ، وفهارس ، في اربعة مجلّدات ذكر فيها ، كما في اواخر الستة الاولى ، العدد العديد من تراجم شعراء الجاهلية والاسلام ، وعلماء العربية ، وفقهائها ، ومؤرخيها ، وجغرافييها. ولا نبالغ اذا قلنا ان تاريخ الادب العربي لم يعرف كتاباً اوسع انتشاراً ، واوفر فائدة من «المجاني» . فقد بلغت طبعات بعض اجزائه الثلاثين ، وما زال ، منذ نحو نصف قرن ، دستور التعليم العربي في مدارس الشرق والغرب من ابتدائية ، وثانوية ، وعالية . ولا يضحكني الّا انتقاد بعض ادعياء الادب اذ يقولون : « المجاني لا يفيد شيئاً اذ لا يشرح الاعلام التي يوردها » ، او يقول مثلاً : « قال المتنبي مادحاً سيف الدولة » ولا يُعلمنا شيئاً عن المتنبي ولا عن سيف الدولة ... » قالى هؤلاء اقول : افتحوا شرح المجاني ، التابع اللازم للمجاني ، تعلموا الشيء الكثير عن المتنبي وسيف الدولة ، وتعلموا ايضاً اشياء أخر قد تنفي عنكم عار الجهل والادّعاء.

ولم يفرغ الاب شيخو من اعداد كتب مدرسية اخرى ، حتى رأى الادب العربي بحاجة الى معرفة مؤلفات عديدة لم تُنشر بعد ، فعمد الى شعراء الجاهلية يجمع تراجمهم واشعارهم من المخطوطات والمطبوعات المتفرّقة ، ويبوّبها ، ويشرحها ، ويذكر اختلاف الروايات فيها . الى ان اصدر الى عالم الادب

«شعراء النصرانيّة» سنة ١٨٩٠ ؛ فاحتلّ هذا الكتاب الكبير ، جنب الاغاني ، وخزانة الادب ، اعلى مركز آخذ الادب العربي. ثم حاد المؤلف فاتمّه بثلاثة اجزاء عن شعراء النصرانية بعد الاسلام (١٩٢٢ــ١٩٢٦) .

وكان ان وقف بعد ذلك على آثار لم تُنشر لبعض الجاهليين ، والاسلاميين فاجتهد في تصحيحها ؛ ونشر منها ديوان الخنساء وملحقه الدرسي ، وديوان الخِرنق اخت طرفة ، وديوان ابي العتاهية . ومذ ظهر المشرق ، اخذ مترجمنا ، بتضمينه بعض المنشورات الادبية كديوان السمؤال (١ ، وديوان سلامة بن جندل (٢ ، وحماسة البحتري (٣ ، وبعض ابيات للمتنبي لم تكن نُشرت بعد (٤ ، وقصيدة ضائعة للغزالي (٥ ، وخمريّات نصرانية قديمة (٦ . ونشر في النثر الادبي كتاب الكتّاب لابن دوروستويه (٧ والرسالة الحرفيّة للشريف الجرجاني (٨ وبعض الحكم والاقوال المنسوبة لعلي بن ابي طالب وغيره. (٩ هذا عدا الرسالات العديدة التي طبعها قدماء الكتاب في التاريخ ، والجغرافيا ، والعلوم الطبيعيّة ، والفلسفة ، والموسيقى ، والدين . ولم يسهُ باله عن آثار ادباء القرن التاسع عشر النادرة الوجود ، فنشر قصيدة الطاعون لنقولا الترك (١٠ ، والنارجيلة والفلّيون لبطرس كرامة (١١ ، ومدح باي تونس للكونت رشيد الدحداح (١٢

اما جدارل الآثار العربية ووصف مخطوطاتها ، فاخذت من وقته حصّةً تُذكر ، اذ كان يهتمّ بترتيبها على حروف المعجم ، ووصفها وصفاً مطوّلاً . ننشر اولًا وصف بعض مخطوطات في المترادفات العربية (١٣ ، ثم بيان المخطوطات

---

١) المشرق (١٢ [١٩٠٩]: ١٦١ ...)
٢) المشرق (١٣ [١٩١٠]: ١٧١ ...)
٣) المشرق (٣ [١٩٠٠]: ١٠٦٤ ... و ١٣ [١٩١٠]: ٥٢٧ ...)
٤) المشرق (٢ [١٨٩٩]: ٦٦٨ ...)
٥) المشرق (١٠ [١٩٠٧]: ٦٠٦ ...)
٦) المشرق (٥ [١٩٠٢]: ٥٣٠ ...)
٧) المشرق (١٨ [١٩٢٠]: ٢٥ ...)
٨) المشرق (٢٢ [١٩٢٤]: ١٠ ...)
٩) المشرق (٥ [١٩٠٢]: ١٠ و ٨٧٠ ...)
١٠) المشرق (٢ [١٨٩٩]: ٦٢٧)
١١) المشرق (٢ [١٨٩٩]: ١١٥)
١٢) المشرق (٥ [١٩٠٢]: ١٥٥).
١٣) المشرق (٥ [١٩٠٢]: ٢٧٨ ...)

النصرانية في المكتبة الشرقية (١ ، ثم بيان المخطوطات الشرقية في مكتبة ليدن (٢ ، واخيرًا اهتم بترتيب المخطوطات العربية لمكتبة النصرانية من اقدم العصور الى اليوم (٣ . ولم تستأنف المجلة صدورها بعد الحرب حتى اشتغل بترتيب جدول وافٍ للمطبوعات العربية منذ وقوف المشرق (٤

* * *

هذا ما وفّر الاب شيخو من المواد لدروس العلماء ومؤرخي الآداب . ولا يعرف قيمة ذاك العمل ، الّا من اضاع الساعات الطويلة في تقليب المجلدات الخطّية الضخمة ، ودحرج عينيه الالوف من المرّات على سطور كد حبرها تتوالى الايام ، ووهى قرطاسها لانتياب العثّ ، فذهب الكثير من حروفها والفاظها .

على انه لم يكتفِ بهذه الخدمة الجزيلة ، بل تجاوزها الى وضع الدروس الوافية في حياة بعض الشعراء والكتّاب . وهي الخطوة الثانية في تاريخ الادب . فاختصّ ، من الجاهليين ، المتلمّس بن حنين بخمس مقالات (٥ افاض فيها الكلام عن اصله ، وزمانه ، وحياته ، واخباره ، ودينه ؛ ثم نشر شعره مشروحًا . والتفت الى صدر الاسلام ، فابرز الى الشهرة شاعرًا كبيرًا قضت عليه الظروف والاميال ، فحبسته طويلًا في عالم النسيان ؛ الا وهو صالح بن عبد القدّوس ، فدرس حياته وجمع ما تفرّق من شعره في كتب الادب (٦ . والقى نظرة على فيلسوف المعرّة فبحث في افكاره وبرّأه من وصمة الكفر (٧ . وكان قد سبق فخصّ المؤرخ الشهير ابن العبري بتلك الفصول الممتعة عن حياته وآثاره التي ظهرت في اول سنة من المشرق (٨ . وعاد فكتب مقالات واسعة في

---

١) المشرق (في السنين: ٧ و٨ و١١) . ٢) المشرق (١٠ [١٩٠٧]: ١٢٨ . . .)
٣) المشرق (في السنين: ٢٠ و٢١ و٢٢) ٤) المشرق (١٨ [١٩٢٠]: ٤٨١ . .)
٥) المشرق (٥ [١٩٠٢]: ١٠٥٧) و (٦ [١٩٠٣]: ٢٨ . . .) و (٧ [١٩٠٤]: ٧٢٤ .)
٦) المشرق (٢٢ [١٩٢٤]: ٨١٩ . . .)
٧) المشرق (٤ [١٩٠١]: ١٠٦٨) ٨) المشرق (١ [١٨٩٨]: ٢٨٩ . . .)

حياة ابن التلميذ (١ ، وهلال الصابئ (٢ وآثارهما . وكذلك نال المتأخرون من عنايته فظهرت له المقالات عن حنانيا المنيّر (٣ ، والخوري نقولا الصائغ (٤ ، والاب بلو اليسوعي (٥ وغيرهم من ادباء القرن التاسع عشر كالمعلم الياس ادّه (٦ ، وابن افرنجيـة (٧ ، ومخائيل البحري (٨ ، ونصرالله الطرابلسي (٩ ، والخوري ارسانيوس الفاخوري (١٠

* * *

ولم تكن هذه الدروس الفرديّة الّا مقدّمات لدروسه الواسعة عن عصور الادب العربي ، فكان ينشر من وقت الى وقت بعض المعلومات عنها ويمهّد المعدّات لصريها المهنيين في نظره : وهما الجاهلية ، والقرن التاسع عشر ؛ اي البداية وما انتهينا اليه :

اما الجاهلية فاحتلّت في افكاره مركزاً خاصاً لولعه بشعرائهـا من حيث اتقام الوصف ، وابتكارات الصور والتعابير ، وخصوصاً لما كان يراه في شعرهم من الاقتباسات النصرانية العديدة . فافرد لدرس ذاك العصر من الادب خطبة واسعة القاها في المكتب الشرقي سنة ١٩٠٣ ، فبدّد ذاك الوهم الذي يستولي على ذهن بعض الجهّال اذ يسمعون بالجاهلية فيستنكفون وينفرون متخيّلين ان تلك العصور « طبق عليها الجهل ، وخيّم فوقها رواق الهمجيّـة . فلا يرون في العرب الّا قوماً من شذّاذ الآفاق . . . لا ينبعث من لغتهم سوى رائحة النوق والجمال . »

هذا الوهم المتكاثف منذ عهود ، بدّده الاب شيخو ، معدّدًا آثار العرب الكثيرة في الحضارة اولًا ، وفي اللغة ثانياً . فذكر مزاياها ، وفنونها العديدة

---

١) المشرق (٩ [١٩٠٦]: ٧٦٢ . . .)
٢) المشرق (٦ [١٩٠٣]: ٤٦٦) —
٣) المشرق (٤ [١٩٠١] : ٦٦١)
٤) المشرق (٦ [١٩٠٣]: ٦٧)
٥) المشرق (٧ [١٩٠٤]: ١١٤٤)
٦) و ٧) المشرق (٢ [١٨٩٩]: ٦٩٢ . . . و ٤٤٢ . . .)
٨) و ٩) و ١٠) المشرق (٣ [١٩٠٠] : ٦ . . . و ٢١٧ . . . و ٦٠٦ . . .)

كالامثال ، والحكم ، والحكايات ، والاخبار والخطب . فاستحق ثناء من فهم الآداب حق الفهم .

ثم رمى ببصره الى عصرنا فتابع آدابه بعناية وانتباه قلما نراهما في مؤرخ . فهو لم يترك كاتباً ، ولا شاعراً ، ولا اديباً ظهر من اوائل القرن التاسع عشر الا ذكره وترجمه ، ولا كتاباً او كراساً طبع في تلك الحقبة الا ادخله في جداوله المديدة حتى اصبح كتابه الوافي «الآداب العربية في القرن التاسع عشر» من اوسع المصادر في هذا الباب ، واجمعها للمعلومات الصحيحة .

ولم تكد السنة الخامسة والعشرون من قرننا هذا تنقضي حتى شمر عن ساعد الجد ، وجمع معلوماته ومذكراته العديدة ، وبدأ بمتابعة تاريخ الآداب « في الربع الاول من القرن العشرين » . وقد كتب ، آخر فصل منه قبيل وفاته ، رحمه الله .

* * *

بيد ان الاب شيخو ، على اجتهاده الدائب في جمع المعلومات ، لم يكن ليرضى بهذه الابحاث التاريخية الصرفة ، وقد وضع الله في ذهنه من قوة التفهم ، والمقدرة على التحليل ، وبعد النظر في الاستنتاج ، ما يضمن بتوفية ادق الباحث درساً ، وايضاح اشد النقاط غموضاً . فهب يتناول المواضيع الحديثة والعلمية ، واضعاً بذلك الحجر الاول لكتابة تاريخ الادب على الاسلوب النقدي الحديث ، ناهجاً للشرق اجمع طريقة الابحاث العلمية التي ستكون وحدها طريقتنا في المستقبل القريب ، ان شاء الله . . .

وكان اول ما نشر من هذه الابحاث مقالاته الخالدة في الاستنتاج والتنقيب عن «الاحداث الكتابية في شعراء الجاهلية» (١ . فتلقاها العالم العلمي بمزيد الاعجاب والثناء . ولبث ينتظر امثلتها حتى كانت سنة ١٩٢٢ ، فتم ذاك الكتاب النفيس ، الذي بُدئ به قبل الحرب ، فاوقفته البلايا المتعددة على البلاد ، الا وهو « كتاب النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » . واني لا اقول عنه شيئاً ،

١) المشرق (٧ [١٩٠٤]: ٥٢٠-٥٣٠)

بل ادع الكلام لمفكر مدقق ، من اساتذة الجامعة الاميركية ، آلته طويلًا طريقة الشرق العاطفية السطحية في كتابة المواضيع المهمة التي لا تُعالج الّا بالدرس والتدقيق ، فسُرّ كل السرور لظهور كتاب يروي ظمأه الى البحث الوضعي ، فقال :

« انه لا يصعب علينا ان نتصوّر الطريقة التي جرى عليها المؤلف في وضع كتابه هذا . فانه لم ينفرد الى شاطئ بحر ، او تحت شجرة في ليلة مقمرة ، ولم يحُكّ من وجدانه افكارًا ، ومن مخيلته آراء ؛ بل عمد الى المجلدات والكتب والى المجلات والتآليف ، وقضى الوقت الطويل يفتّش في ثناياها عن المادّة التي يطلبها ، وينقّب في بطونها عمّا يتناول موضوع بحثه . ثم جمع هذه المادّة ، ومحّصها ، وغربلها ، ونسّقها وبوّبها ، واستخرج منها استنتاجاته ، وقدّم للعالم نتيجة مجهودات عقليّة تناولت عقودًا من سني حياته في كتيّب يطالعه القارئ في خلال ساعات .

« هذا هو التأليف العلمي الصحيح ! » (١

* * *

هذا هو الاب شيخو ، مؤرّخ الآداب ! ولاشك بانه فاتني ذكر الكثير من آثاره ومجهوداته في تحقيق هذا الفنّ ، الذي يكاد يكون معدوماً في لغتنا .

فلنستفدْ مما ترك لنا من التراث الثمين ، ولنسر على طريقته في البحث والتنقيب ، بعد ان ننحني باتضاع امام واضع الحجر الاول للتاريخ الادبي الصحيح .

١) الدكتور فيليب حتي — في مجلة الكلية (٩ [١٩٢٢-٢٣] : ٢٨٥)